مقدمة الترجمة العربية

السيد البدوي فتحي

==========

ان كتابة مقدمه لهذه الترجمة التي تمت قبل ثلاثين عاما تعيد لي ذاكرة تم نقشها آنذاك تحمل بين طياتها ديناميات عديدة تشكل فى مجملها حروف ودوال سوف تسطر نفسها عبر مسيرة طويلة.

لقد كان لي شرف التأسيس الأكاديمي، إبان دراسة الماجستير، علي يد أستاذ الأساتذة صلاح مخيمر رائد الكلينيكية وعميد الانتقائية العلاجية. وبعيدا عن ان أتكلم هنا عن أستاذ تتجاوز حروفه أبجدياتى، سأجدني قد تلقيت منه، على نحو مباشر وغير مباشر، مفاهيم تعكس التأثير غير العادي والاستثنائي للمدرسة الفرنسية في الفكر الإنساني حيث تلقى تعاليمه.

فلقد كانت المدرسة الفرنسية في الفكر، إبان تلك الحقبة، تعيش تحت هيمنه الحياة الفكرية الباريسية التي تمتلئ بكوكبة المفكرين الذين يفكرون تفكيرا عميقا بشأن العقل الإنساني، والذين ذاع صيتهم في الخمسينات من القرن العشرين؛ وكان من بينهم "جاك لاكان"، المفكر الفرنسي الأكثر تأثيرا بشكل مثير للجدل بعد سارتر في الأربعينات من ذلك القرن. لقد كان لاكان من المثقفين العظام الذين شغلهم العقل الإنساني واستطاع أن يعيد النظر في التحليل النفسى من خلال حركة دؤوبة، ذهابا وايابا، بين النصوص الفرويدية الأساسية للتحليل النفسى، ومن خلال إنصاته كمحلل نفسي، وبفضل الإسهام الهائل للعلوم الإنسانية. لقد قام لاكان بتحديث مشروع فرويد العلمي واكتشف مصادر المعرفة الإنسانية التي تتأتى من اللغة، تلك اللغة التي تضم أعمق أعماق الإنسان، لا شعوره وتاريخه الثقافي والاجتماعي ووسائل تعبيره المختلفة.

لقد كانت مفاهيم استاذي صلاح مخيمر الفكرية تحمل بين جنباتها جملة العلوم والمعارف الإنسانية بعامة، مثلما تحمل الفكر التحليلي النفسى الفرنسي وبخاصة الفكر اللاكانى الذي شكل وثبة في تناول الإنسان من حيث هو إنسان. لقد أصبحت، من خلال حواراتي المستمرة وعن قرب مع أستاذي صلاح مخيمر، شغوفا بالتعرف على الفكر اللاكانى والطروحات اللاكانية.

وبعد الانتهاء من دراسة الماجستير التي بها خطت قدماي في عمق النظرية التحليلية النفسية الفرويديه، إذ كان موضوع أطروحة الماجستير "دراسة كلينيكيه للفانتازيات في الأعصبة الطرحية..." اردت أن أكمل المسير وأن اتناول بالدراسة الفكر اللاكانى وبخاصة فى المجال الكلينيكي الذي انخرطت فيه منذ تخرجي من الجامعة.. وكان الموضوع الذي شغل بالى هو " دراسة كلينيكية للفصام البارانوى فى ضوء المفاهيم الأساسية عند جاك لاكان".

لقد كان هناك في جامعة عين شمس، في قسم علم النفس، شمس شموس يبرق لمعانه في كل فكر ويمهر بخاتم فكرة كل متلقي للعلم، يأخذ بناصية كل من يتلقي العلم علي يديه ليذهب بها الي رحي افاق واسعة من المعرفة الإنسانية.

لقد كان وليس غيره فرج احمد فرج، الفيلسوف قبل العالم، والإنسان قبل المربى، المفكر العالم الأكثر معرفة بفكر لاكان والمدرسة اللاكانية، والأكثر قدرة على بمفاهيمها ومضامينها الإبستمولوجية الفلسفية والأنثروبولوجية والبنيوية والثقافية وقبلهم التحليلية النفسية. فلقد حمل فرج أحمد فرج على عاتقه مسؤولية تعليم الجيل الجديد أن التحليل النفسى كعلم لا يجب أن يقف

عند اسم فرويد وأفكاره، وإنه لابد من متابعة حركة العلم التقدمية التي قد انطلق بها لاكان حيث بدأ من حيث أنتهى فرويد، وأعاد التفكير في فرويد من خلال دعوته ب "العودة الى فرويد" في إطار معرفي أوسع أتاحته له جملة العلوم الإنسانية الأخرى.

وكان التسجيل لأطروحة الدكتوراه تحت إشرافه في العام 1990 م، كأول تسجيل أكاديمي في الفكر اللاكانى، وكانت بداية رحلة إبحار صعبة حيث أمواج صاخبة في تلاطمها ورياح عاتية في شدتها وتقلبات جوية بين برودة قارصة أحيانا، وحرارة شديدة أحيانا أخرى. لقد كان التعامل مع مفاهيم وأفكار لاكان أشبه ما يكون بالتعامل مع اللغز والمشكلة:

مع اللغز حيث الأسلوب المعقد؛ فلقد كان لاكان يعتبر أن الأسلوب هو الإنسان...لقد كان ولعا بالصعوبة في الأسلوب، وخصوصا أسلوبه الباروكي، حيث التميز بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة ودقة الزخرفة وغرابتها أحيانا. لقد كان أسلوب لاكان الأدبي يشكل عقبة، حيث تحفل كتاباته بالغموض وباللعب بالجرس الموسيقى...على نحو ليس بالسهل دائما فك مغاليقه وحل فاعليته. لقد كانت أساليبه البيانية وصوره البلاغية كلها حليفة متحالفة مع النفي، مع نفى النفي، مع كل مصادر القواعد النحوية التي تصنع ضربا من التأكيد وتتخذ موقفا في تزعمها: سأخبر بالحقيقة، ولكنها ليست كل الحقيقة، وليس هناك من سبيل لقول كل الحقيقة. أن قول الحقيقة مستحيل حرفيا: إذ تفشل الكلمات. لقد اعتمد لاكان أسلوبا في التعبير يبدو أحيانا من المستحيل اختراقه..." ان أسلوبه أشبه ما يكون بالفخ الذى نصبه أبو الهول للغزه الغامض المبهم ... الذى يتطلب، إن كان له أن يُفهم وتُحل شفرته، فهما باللغة الفرعونية والطقوس الشفوية".

أما المشكلة، تتمثل في تحديد نقطة البداية. فكما قال العديد من المعلقين على أعمال لاكان: "إن من يقرأ أعماله يجد نفسه في مواجهة صعوبة تحديد من أين يبدأ، وذلك جزئيا بسبب المدى الفسيح من الأصداء الذي يجده المرء". وإن من عليه أن يتصدى للقرب من أفكار هذا الرجل عليه الا يكون فحسب على معرفة بالتحليل النفسى وعلم النفس المرضى والطب النفسى، بل وأيضا بالأنثروبولوجيا واللغويات وعلم الرياضيات ومن قبلهم الفلسفة.

لقد كان الأستاذ يعرف كل هذا وأكثر، وبدأ في توجيهي آنذاك مدركا آنذاك أن قراءه لاكان المباشرة عبر كتاباته واعماله هي طريق صعب يحتاج لمن لديه آلفة طويلة بالتحليل النفسى والعلوم الإنسانية؛ إذ أن من أعظم الأشياء دلالة عنده تتأتى من قدرته على أن يستثير مدى فسيح من ضروب الطرح، وإن لم تكن بكلها على أية حال إيجابية أو مثالية، لدى أولئك الذين ينشبكون معه في تواصل، سواء على المستوى الشخصي أو من خلال كتاباته الغامضة، أو حتى من خلال سمعته وحدها. لقد كان فهم لاكان يستلزم قراءة مابين السطور وإقامة صلات وروابط غير متوقعة بين مختلف فروع المعرفة؛ الامر الذي لم يتحقق الا الي بالرجوع الي مفسرية وشارحية، ومن كتب عنه قبل الرجوع الي نصوصه مباشره.

أن غموض لغة لاكان، بما تتضمنه من مفردات ومعاني عديدة، وبما تنطوي عليه من تلميحات غامضة لأفكار فلسفية مبهمة ومراجع ثقافية واسعة النطاق، أصبحت في مجملها تشكل متحفا من متاحف الثقافة الأوربية التي تتطلب، أن اردت تتعرف على محتواه، مجموعة من المنح الدراسية الثقافية المتقدمة التي قد تتجاوز قدرة وصبر معظم القراء المعاصرين.

وهذا ما تلمسه فرج أحمد فرج وعرفه بحدسه ونظرته الثاقبة، وقيلهم معرفته الواسعة؛ فألزمني أولا بأن اتعرف على الأسس النظرية التى تسمح بفهم الفكر اللاكانى والوقوف على الإتجاهات العامة في التحليل النفسى اللاكانى والعلوم الإنسانية بعيدا عن قراءة كتابات لاكان المباشرة. فالقي الي، موجها لي، بكتاب كان قد قراءه وعلى معرفة حقه به الا وهو كتاب جاك لاكان للمؤلفة **"آنيكا لوموير"** الذي كان بمثابة أطروحة أكاديمية تذهب للتعرف على اللاكانية بعرض مُقدَم بأسلوب واضح ومنظم لجملة الأفكار التى تقوم عليها اللاكانية. لقد أدرك شمس الشموس ان مثل هذا العمل سوف يفتح الباب أمامي في محاولة فهم جاك لاكان على نحو ميسر وبسيط.

لقد تلقيت الكتاب لأنبش بين جنيات صفحاته ومحتويات فصوله، التي تبدأ بعرض كان أنذاك أبعد يكون عن اهتمامي وتناولي، ألا وهو الفهم البنيوي الحق واسس علم اللغويات العامة، ليعرج علي استخدام لاكان للمعطيات العامة لعلم اللغويات ليطرح نظريته في بناء الذات عبر مرحلة المرآه وبلوغ الاوديب ودوره في بناء الذات وتشكل اللاشعور من خلال ما يسمي بالانقسام او الانشطار الذي يُحدث الكبت الاولي وتكوين الدال ببلوغ اللغة والرمزي عبر عمليتي الاستعارة والمجاز.

لقد فتح الكتاب عيني على الأصول البنيوية التى يطرحها علم اللغة في الفكر اللاكاني على نحو ميسر. وهذا جعلني أقف عند محتواه ومتنه فصلا بفصل لانتقل بين "ابوابه التسعة واكرس كل مجهودي في ترجمته التي كانت تَعرُج كتير لعدم الالفة بالمصطلحات والبداية التى كنت أسطرها من خلال هذه الترجمة.

وشرعت في ترجمة هذا الكتاب الذي استغرق وقتا وأخذ مجهودا يصعب وصفه في هذا المقام. وما كان له ان يكتمل دون مراجعة وتنقيح ومتابعه كل مفردة وفقرة من استاذي شمس الشموس فرج أحمد فرج التي لا ولم ولن تغيب عنا.

لقد عرضت **آنيكا لوموير** مقدمة جد واضحة لعمل لاكان بكشفها عن جذوره فى علم اللغويات والأنثروبولوجيا البنيوية وبتناولها معنى "العودة الى فرويد" التى أطلقها لاكان شعارا له. لقد لفتت الانتباه على نحو خاص لاستخدام لاكان لعلم الغويات ومبادئ الأولية، ذلك العلم الذي زود بإمكانية الوصول لتكوينات اللاشعورالتى من قبيل الأحلام والأعراض المرضية. كما أوضحت أيضا العلاقة الحميمة بين تحليل لاكان للعقدة الأوديبية والنظرية العامة فى الثقافة والنظام الرمزي على النحو الذي صاغه كلود ليفي شتروس.

أن هذا الكتاب يعد واحدا من أعظم المقدمات الأكاديمية للخطاب اللاكانى.

وآنيكا لوموير قد نشرت هذا الكتاب بداية باللغة الفرنسية فى العام 1970، ثم تمت ترجمته بعد ذلك الى الإنجليزية واللأسبانية واليابانية والإيطالية. واليوم نطرح ترجمته العربية ليضاف الى المكتبة العربية ويوفر للمهتم جملة من المعارف التي لا غنى عنها في الفهم الإنساني والتحليل النفسى اللاكانى بخاصة.

السيد البدوي فتحي

اكتوبر 2019